

اللغة وسيط ثقافي

Language is a cultural medium

مانع خديجة*

جامعة مستغانم/ البلد (khadidja16manaa@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 04 / 03 / 2020 ؛ تاريخ القبول : 28 / 06 / 2020 ؛ تاريخ النشر : 20 / 07 / 2020

Abstract

المخلص

It is not possible to talk about culture apart from language, for language is the disclosure of the human self to the other, and one of the aspects of distinguishing a nation from a nation, or a people from a people. It is a sound system and a means of communication and expression, transmitting civilization from one generation to another. Therefore, language is a cultural value, because speakers express their identity and the identity of others through their use of it, and this use represents a symbol of their individual and social identity, and preventing its use is a rejection of this identity. Therefore, many philosophers and researchers, such as researcher Claire Kramash, considered that the issue of language today is a contemporary issue, and contemporary requires participation: participation in existence, and participation in destiny.

Key words: Language, culture, identity, participation.

لا يمكن الحديث عن الثقافة بعيدا عن اللغة، فاللغة هي انفصاح الذات الإنسانية على الآخر، وأحد أوجه تميز أمة من أمة، أو شعب من شعب، وهي أيضا نسق من العلامات والرموز ذات المعاني المختلفة، والتي هي من اختصاص الإنسان، وهي أحد مظاهر النمو العقلي والحسي والحركي، وهي نظام صوتي ووسيلة اتصال وتعبير، تنقل الحضارة من جيل لآخر. لذلك تعد اللغة قيمة ثقافية، لأن المتحدثين يعبرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم لها وهذا الاستخدام يمثل رمزا لهويتهم الفردية والاجتماعية ومنع استخدامها هو رفض لهذه الهوية. لذلك اعتبر الكثير من الفلاسفة والباحثين كالباحثة "كلير كرامش" أنّ مسألة اللغة اليوم هي مسألة المعاصرة، والمعاصرة تقتضي المشاركة: المشاركة في الوجود، والمشاركة في المصير.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الثقافة، الهوية، المشاركة.

* الباحث المرسل:

1. مقدمة:

معرفة طبيعة العلاقة بين اللغة والثقافة هو معرفة لتلك العلاقة بين الألفاظ والأصوات والجمال والنحو وبين الوسائل والأساليب التي بها يعبر الناس عن تجاربهم المختلفة للواقع وسلوكهم الدائم أو النادر، تبدو بديهية للوهلة الأولى، لكن ما هو بديهي ليس سهلاً بالضرورة قد يعتبر البعض أن البدهية تعني البساطة والوضوح هذا صحيح، لكن ليس في هذا المجال، في ميدان اللغة والثقافة تنتشعب العوالم وتتداخل الأفكار والطرق المعبرة عنها، وإن كان بعض الباحثين ينفون وجود أية صلة بين الثقافة واللغة، إلا أن هذا الأمر يستحيل بالنظر إلى الوظيفة الأساسية التي تؤديها اللغة وهي التواصل الذي يعتبر حلقة رابطة بين فردين أو بين الفرد والجماعة التي يعيش معها، هذه الجماعة التي تحكمها ثقافة وقيم وأعراف خاصة بها تنتقلها أجيالها وتحاول الحفاظ عليها. ولذلك يبدو أن الإشكال المطروح هو التعرف على العلاقة بين اللغة والثقافة وتبيان طبيعتها وكيفية بناء عالم مشترك تتشارك فيه هذه اللغات والثقافات على اختلافها وتنوعها؟.

أولاً: تلازمية اللغة والثقافة:

في مفهوم اللغة:

الحديث عن اللغة هو حديث عن تلك القدرة المميزة التي تتفوق على كثير من القدرات التي يمتلكها الإنسان، هذه الأعجوبة التي يستطيع بها أي فرد وبمجموعة من الأصوات التي يصدرها من فمه أن يخلق شبكة من الأفكار في ذهن الآخرين.

"تطلق على ما يجري على لسان كل قوم، لأنّ اللسان هو الآلة التي يتم بها النطق، أو تطلق على الكلام المصطلح عليه، أو على معرفة أفراد الكلمة وأوضاعها."

واللغة مرادفة للسان، وهي ظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف الشعوب والعصور، وكذلك اللسان المؤلف من ألفاظ وقواعد ثابتة ثبوتاً نسبياً فهو وضع اجتماعي دائم مفروض على كل شعب بمعزل عن إرادة أفراد.

يعرفها الجرجاني بأنها: " ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، فهي نسق من العلامات والاشارات والرموز ذات المعاني المختلفة يستخدمها الإنسان للتعبير عن احتياجاته ومراده. وبفضل دورها التواصلية يتمكن الأفراد من التعبير عن أحوالهم وبلوغ أغراضهم، كونهم أعضاء فاعلين في

مجتمعاتهم. هم في تعبيرهم عن أغراضهم عن طريق اللغة، يعبرون عن شخصياتهم وعن هويتهم، فمجموع هويات الأفراد هي جزء من هوية المجتمع الخاص بهم، فاللغة ظاهرة اجتماعية، خاصة بكل مجتمع وهي متغيرة غير ثابتة عبر الزمن، ولكل مجتمع ثقافته وأحكامه وأعرافه، إذا كانت اللغة هي الوسيلة التي ندير بها حياتنا الاجتماعية، فهذا يعني أننا عندما نستخدم اللغة في سياقات التواصل نتعقد الصلة بينها وبين الثقافة في نواح كثيرة.

في مفهوم الثقافة:

"ثقّف الرجل ثقافة صار حاذقا، وثققت الشيء حذقته، والرجل المثقف الحاذق الفهم، وغلّام ثقّف: أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه."

وهي طريقة حياة الناس وكل ما يملكونه ويتداولونه اجتماعيا لا بيولوجيا، أي أنها نهج وسبيل إنساني لا تنقل بالوراثة إنما تكتسب من بيئة اجتماعية محددة، تتداخل فيها الأعراف والتقاليد، بالدين، والتاريخ. إذن فهي كل معرفة يتطلبها المجتمع تصنع سلوك الفرد وتشكله لكي يعيش طبقا لمعايير ذلك المجتمع.

فهو "نشاط مجموعة أعضاء في مجتمع خطاب يشارك أعضاؤه في مكان وتاريخ وتصورات اجتماعية مشتركة حتى عندما يغادر هؤلاء الأعضاء مجتمعهم فإنهم يستعيدون نسق عام من معايير الإدراك والاعتقاد والتقييم والتصرف، وهذه المعايير هي ما نسميه بصفة عامة ثقافتهم ثم إنّ الثقافة ليست شيئا واقعيا بل هي مجردة لأنها تقع في مجال التواصل والتعلم والتعبير عن الذات وعن الواقع، فهي كاللغة غير قابلة للبرهان، ولا نعني هنا الثقافة الراقية كالموسيقى والأدب والفنون الراقية أو الثقافة الشعبية فقط، إنما نعني بها كل شيء يمكن للإنسان تعلمه، حتى وإن كان معرفة تتعلق بوظيفة أو عمل ما، يبغي الحصول عليه، أي أنها كل تعليم ومعرفة تجعل للفرد دورا مهما في المجتمع وهذا تعريف شهير للثقافة قدمه غودنو سنة 1957م، ص162 في مقال عنوانه: "علم الأناسة الثقافي واللسانيات" نشر في كتاب جماعي: "ثقافة المجتمع تتألف من كل شيء يتوجب على الواحد أن يعرفه وأن، يؤمن به لكي يعمل بطريقة مقبولة من طرف كل أعضاء المجتمع، وتتألف ثقافة المجتمع من كل شيء يجعله يقوم بذلك في أي دور يقبل به أعضاء المجتمع ويرضونه لكل واحد منهم"

ثقافة المرء تعبر عن هويته الاجتماعية، أي أن اللغة تعني هوية المجتمعات. لأنها هي وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع وإذا حرمت المجتمعات من اللغة فإنها تحرم من التواصل والتعبير فالجماعات الإنسانية تتواصل وتتفاهم عبر اللغة، لذلك لا يمكن أن توجد الشعوب بدون وجود اللغة.

وتتمثل كل لغة في منظومات صوتية تحمل معانٍ دقيقة يتفق عليها الناطقون بتلك اللغة وهم الذين حملوها تلك المعاني.

اللغة لا تنحصر في مجال الكلام والتواصل فقط، فحين يتحدث المرء بلغة معينة فإن هذه اللغة تنطوي على ثقافة، تاريخ، وعي وهوية معينة. فالمجتمعات تعبر من خلال اللغة عن ثقافتها وعن تراثها وتاريخها، وفي وقتنا الحاضر إذا أردنا أن نبني مجتمعاً وفق ذهنية معينة فيجب أن تكون هناك لغة تعبر عن ذلك المجتمع وعن تلك الذهنية.

إن اللغة والثقافة طاقة متطورة، فإذا أردنا أن نعرف شعباً ما فإنه علينا معرفة لغته وثقافته، فهما معيارا الهوية والشخصية الفردية، الجماعية. لا يمكن بناء اللغة والثقافة في يوم واحد لأنهما نتيجة لتراكم آلاف السنين من هنا تأتي أهمية بناء المجتمعات على اللغة لأن المجتمع الذي يبني نفسه على ثقافة ولغة الآخر هو مجتمع غي متأصل ليس له هوية خاصة. "اللغة تمتلك ديناميكية داخلية متأتية من ارتباطها بالواقع الاجتماعي، تجعلها قادرة على التأقلم والتطور من خلال استيعاب المصطلحات والمفاهيم الموجودة في لغات أخرى"

بما أن اللغة تستعملها المجموعة وتتعلمها فهي مادة مشتركة صنعت بصفة جماعية ويتم تجديدها بصفة جماعية أيضاً، وتعرف الثقافة بأنها جميع المنتجات المادية والمعنوية التي أنتجتها المجتمعات عبر تاريخها في سبيل الحفاظ على ديمومة واستمرارية حياتها، واللغة جزء من هذا الناتج، لأن المجتمعات تؤسس نفسها من خلال اللغة، ويمكن القول إن اللغة هي جزء مهم من الثقافة، فالمجتمعات تعبر عن نفسها، علاقاتها وتعليمها من خلال اللغة، وكل هذه الأمور مرتبطة بالثقافة وبدون هذه الأمور ستكون المجتمعات مجرد كيانات خرساء، ومهما كان مستوى ثقافتها فإنها ستبقى عاجزة عن التعبير عنها.

المجتمعات التي لا تنمو انطلاقاً من جذورها ستكون مجتمعات مهمشة ولن تحيا من أجل نفسها بل ستعيش من أجل الغير. وستعيش معزولة عن كينونتها. مثل هذا المجتمع سيكون سبباً للعبودية في جميع مجالات الحياة من السياسة إلى الاقتصاد وإلى الإدارة. إن عزل المجتمعات عن لغتها يعني عزلها عن هويتها، فكل مخلوق حي صوته ولغته التي تمثل هويته ويعرف بها، وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان.

إنّ الثقافة مثل اللغة تمثل مجموعة من القواعد والمعايير التي يأخذ بها مجتمع ما، ولهذا فقد اعتبرها المشتغلون بالدراسات الأنثروبولوجية ضمن منظومة ثلاثية تشمل الجنس واللغة، وتمثل أهم المقومات التي تحدد هوية المجتمعات الإنسانية"

ومادامت الثقافة تنشأ عند الشخص من خلال تفاعله مع مجتمعه ومعايشته لأقرانه من بني جنسه، لا شك أنّ اللغة تمثل العنصر الأهم في نموها ونقلها وتطويرها، لذا اكتسابها مرهون بالحياة الاجتماعية، حيث يتلقى من خلالها كل ما يسمح له بالتواصل والتكيف والتأقلم، وهي لا تحقق التواصل فقط إنما تشكل واحدة من أهم القواعد لحفظ الوحدة والتراث. هما قدرة فعالة على تثبيت التصورات والقيم والرؤى وترسيخ المرجعيات التي تصدر عنها المواقف الفردية والجماعية.

في علم اللسانيات الاجتماعية تكون اللغة انعكاسا للثقافة التي يصنعها ويستعملها الناس في مجتمع ما، فبما أنّهم يعطون قيمة لأشياء معينة وبما أنّهم يقومون بأفعال بطريقة ما، فإنّهم يستعملون لغة تعكس تلك الأشياء الهامة لديهم وكل ما يقومون به من أفعال. إن اللغة فعل ثقافي لأنها تتعكس في الطريقة التي يتصرف بها الفرد مع غيره من الأفراد من خلال أفعال الكلام مثل الشكر والامتنان والتحية هذه الأفعال التي نجدها في ثقافات عديدة، وأيضا لأنّ هؤلاء الأفراد يستخدمون اللغة في بناء الأدوار الموعلة في التفاعل الاجتماعي التي تعرفهم بوصفهم أعضاء في مجتمع ما.

اللغة المنطوقة والثقافة الشفهية:

الكلام المتداول بين الناس وساطة فعالة في بناء العلاقات، يمارس الناس سلوكهم ويعبرون عنها في ألفاظ وجمل وقوالب لغوية تسهل عملية التفاهم بينهم في ظل النظام العلائقي الاجتماعي الذي يزخر بكثير من العادات والأعراف تكون ثقافتهم، فالكلام أو اللغة المنطوقة هي من أهم مستويات التواصل التي تحكم العملية الثقافية أو التبادل والتفاعل الثقافي بين الأفراد.

إنّ طرفا العملية الكلامية (المتكلم والسامع) يجعلان من حديثهما أرضية خصبة تتلاقى فيها وجهات النظر وتتبادل فيها الرسائل معبرة عن ذلك الكم الهائل من الأفكار والمعارف المكونة لثقافتهم، المبرزة لهوياتهم، لذلك تزرخ المجتمعات الإنسانية بثقافات شفوية يتبادلها الأفراد وتتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل عن طريق عمليات السرد والحكاية، والملاحم البطولية الغنائية وفنون التمثيل كالمسرحيات. فمثلا تعد الأمثال والحكم الشعبية من أبرز مظاهر الثقافة الشفوية المنقولة عن طريق الكلام. وتكاد لا تخلو أمة من الإرث الأسطوري، فقد قدمت الأسطورة نموذجا عن التناقل الثقافي المعبر عنه بواسطة اللغة ، "الأسطورة لغة يتم تنشيطها عند مستوى مرتفع بشكل خاص وتتابع فيها

المعاني بشكل يجعل الخلفية اللغوية لها في حركة دائما". أمّا الخطاب الشفوي هو مظهر من مظاهر الثقافة الاجتماعية فلو رجعنا إلى الوراء قليلا إلى عصور كانت فيها الكتابة حكرا على مجموعة معينة من الناس، لوجدنا أنّ ممارسة الخطاب بين حلقتي العملية الكلامية وصل إلى مستوى ناضج جدًا، السفسطائيين على سبيل المثال كانوا من أهم من قدموا الخطاب الشفوي بصورة راقية داخل التنظيم الاجتماعي الأثيني آنذاك. ويظهر تأثير الثقافة على الأسلوب الخطابي اللغوي في الأسلوب الحوارى وملامحه. "ومن خلال التنظيم الاجتماعي للكلام فإنّ الثقافة تشيد تشييدا عبر المحادثات اليومية من خلال اختيار الأطر والمواضيع التي يتبناها المتحدثون في حوارهم مع الآخرين، ومن خلال الطريقة التي يتعاونون بها في عملية تحسين الوجه داخل جملة من أنواع الخطاب. والثقافة تترك بصمتها على الأساليب الحوارية لأعضاء الجماعة الاجتماعية. وهي أساليب تؤخذ في الاعتبار عامة لأنها تشكل جزءا من هويات الأفراد الثقافية".

اللغة المكتوبة وترسيخ الثقافة:

كان لاختراع الكتابة قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد الأثر الهام في ترسيخ التراث الشعبي الثقافي الشفهي وتحويله إلى نصوص مكتوبة. اعتبر الكثير من الأنثروبولوجيين واللغويين أنّ اختراع الكتابة أهم من كل الاختراعات التي عرفت البشرية إلى يومنا هذا. أنّ تحول ما تتناقله الأجيال من أخبار وأحداث شفهيًا إلى نص كتابي موثق هو بمثابة قفزة علمية إنسانية، " فكأنه قد تم تحويل الحديث من حالة سائلة إلى حالة صلبة، فتحول النص من الشفاهية إلى الكتابة أي أنّه أصبح نصا مشفرا تحول حروفا مطبوعة أو أدبا مكتوبا أو قانونا معروفا".

تعد الكتابة توطئة للتسجيل والتوثيق الأمر يجعل للثقافة الشفهية والإرث المتناقل، والأفكار الجديدة ذاكرة لغوية موثقة. فتواريخ المدن والأمم والإنسانية جمعاء أصبحت في مأمن من الاندثار والنسيان. وانتشرت الكتابة كأولوية إنسانية تنادي بها السياسات وتدافع عنها المنظمات الإنسانية ضمن ما يطلق عليه اليوم باسم الحق في التعليم والتدريس. إنّ الكتابة هي الطريقة التي تدير بها الثقافات مسألة ذاكرتها الاجتماعية أي مسألة احتفاظها بترائثها الشفوي وتجاربها ومعارفها الإنسانية ونقلها، بهذه الصورة تكنت حضارات وأمم من حجز مكان لها ضمن الركب الإنساني نحن نعرف أنّ هناك حضارات اعتمدت التناقل الشفوي لمدة زمنية كبيرة وتناقلت تاريخها عن طريق المخبرين، لكن معظم هذا التاريخ إما هدهد الزوال، أو تغيرت فيه تفاصيل الأحداث بحكم إمكانية تدخل الذاتية

فيه. وهناك حضارات اعتمدت الكتابة من أجل التاريخ والحفاظ على ثقافتها الخاصة كالحضارة الصينية.

قراءة نص مكتوب في أي مجال سواء في التاريخ أو السياسة أو الأدب هو بمثابة اطلاع على ثقافة كاتب ذلك النص، فالنصوص إذا تعبير واضح وصريح عن ثقافة الشخص، لغته أسلوب حوار ينم عن تلك القيم والموروثات التي ما ألف يتعلمها في حياته من وسطه الاجتماعي، وتعبير أيضا عن تجاربه ورؤيته الخاصة للأمور، هذه الرؤية التي تشبعت من تفكير ثقافي عميق. المفاهيم التي يطرحها أي كاتب ومؤلف في كتاباتهم أو مقالاتهم، حتى إن كان نسا عاديا بين فردين عاديين في مجتمع ما هو رسالة تعايش لغوي ثقافي فحواها متنوع وثري، وفي الحقيقة يتعايش النص المكتوب مع الشفوي ويسهم هذا التعايش في خلق أشكال من التعدد اللغوي والتنوع الثقافي.

ثانيا: التعدد اللغوي والتنوع الثقافي

التعددية اللغوية بديلا عن اللغة الواحدة:

إن أي شخص على قدر مستواه الفكري يمكن أن يلاحظ الكم الهائل من اللهجات واللغات المنتشرة عبر العالم، إن هذا التعدد اللغوي ينم عن القدرة اللامتناهية من طاقة الانسان في إنتاج الكلمات والألفاظ، هي قدرة فريدة من نوعها تختص به لوحده. فاللغة العامية أو ما يسمى باللهجة المحلية هي الأساس الأولي لكل اللغات الرسمية، ففي البلد الواحد يوجد الكثير من اللهجات التي يستعملها مواطنوه، وهذا راجع إلى التسلسل التاريخي وكيفية نشوء البلدان والدول وكذا انفاق الجماعات وتلاقي الشعوب ضمن إطار إقليمي معين.

التطورات التي حصلت وأدت إلى نشوء الدولة غيرت معها مفاهيم عدة منها ظهور مصطلح اللغة الرسمية أي لغة الدولة، ولأسباب سياسية وأخرى سلطوية وإيديولوجية يعترف الباحثين اليوم بأن الكثير من اللغات المحلية في طريقها للزوال، إن هذه المشكلة مسألة حساسة، فزوال اللغات يتبعها زوال ثقافي لا محالة. دقت المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم ناقوس الخطر، وأعلنت يوم 21 فيفري/فبراير من كل سنة اليوم العالمي للغة الأم، وهو الاحتفال السنوي في جميع أنحاء العالم لتعزيز الوعي بالتنوع اللغوي والثقافي وتعدد اللغات، وأعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 2008م سنة دولية للغات. في مطوية السنة الدولية للغات عام 2008م، قدمت الجمعية برامج وتنظيمات لحماية التعدد اللغوي والذي اعتبرته سر ثراء الإنسانية، ففي رسالة ألقاها المدير العام لليونسكو كويشيرو ماتسورا بين أن "اللغات هي من المقومات الجوهرية لهوية الأفراد والجماعات وعنصر أساسي في تعايشهم السلمي. كما أنها عامل استراتيجي نحو التنمية المستدامة، وللربط

السلس بين القضايا العالمية. وتعدد اللغات عن بصيرة هو الوسيلة الوحيدة التي تضمن لجميع اللغات إيجاد متسع لها في عالمنا الذي تسوده العولمة. ولذلك تدعو اليونيسكو الحكومات وهيئات الأمم المتحدة ومنظمات المجتمع المدني والمؤسسات التعليمية والجمعيات المهنية الأخرى إلى مضاعفة أنشطتها الرامية إلى ضمان احترام وتعزيز وحماية جميع اللغات، ولاسيما اللغات المهددة، وذلك في جميع مجالات الحياة الفردية والجماعية".

التعدد اللغوي ثراء معرفي كبير وعالي المستوى هو دليل على ذلك الكم الهائل من الإنتاج العقلي والمعرفي الإنساني، ومجال جامع لكثير من الاختصاصات ينم عن ثقل استراتيجي هام في حياة البشر، ومن المعلوم أن قضايا التنوع الثقافي تحكمها فكرة التعدد اللغوي، فمن أجل بناء الحوار الثقافي وتعزيز التعليم للجميع وتنمية مجتمعات المعرفة والتي تعتبر أهم محاور التعايش الإنساني والمشاركة الفاعلة يجب توفر التزام دولي واسع بتعزيز التعددية اللغوية. هذه الأخيرة التي تجد نفسها كل مرة أما أيديولوجيا معينة تحاول حصرها في لغة واحدة.

اللغة الواحدة مشروع إيديولوجي وفكري بالدرجة الأولى، ففي الفلسفة لو تحدثنا عن مشروع **فيدغشتاين اللغوي** "النحو العالمي" وبناء لغة منطقية للعلوم، أو مشروع راسل "اللغة الرمزية" فإنهما يشيران وبصورة واضحة إلى رفض التعددية اللغوية حتى وأن كان المجال المراد تطبيق المشروعين فيه هو مجال العلوم. **تشومسكي** أيضا تكلم عن "النحو الشامل" معتبرا أن اللغات الإنسانية المتعددة كانت لغة واحدة وبحكم التغيرات حدث بينها الاختلاف، ويقر بأن هذا التعدد اللغوي سيجد لنفسه طريقا ما ليعود إلى اللغة الأم. إن أسطورة برج بابل لها وقع كبير في الفلسفة وعلم اللغويات والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

أن ننادي بلغة واحد عالمية معناها أن نجعل من العولمة مشروعا لغويا ثقافيا، أن نطلب من الأفراد الانسلاخ من جذورهم من هويتهم وثقافتهم، أن نمسح كل تاريخهم بغية بناء تاريخ جديد وثقافة جديدة. التعددية اللغوية لا تعني أبدا الخلاف والتنافر والصراع، ومن لغته أفضل من الأخرى. هي حوار تتلاقى فيه الثقافات، تتحاور فيه المجتمعات وتتعاش فيه الإنسانية من أجل بناء مستقبل مشترك.

خصوصية الثقافة في مواجهة العولمة الثقافية:

مفهوم العالمية اليوم لا يجب أن يحصر ضمن مفهوم التوافق والاندماج الكلي مع بعضنا وبناء عالم تحكمه لغة وثقافة واحدة وسياسة واحدة، بالعكس مفهوم العالمية اليوم يجب أن يكون مفتوحا

للجميع عالما يضم الجميع على اختلاف ألسنتهم، تتشارك فيه الثقافات الرؤى والتجارب المعرفية وتتناور من أجل إحلال السلم والتوقف عن الصراعات. لأنّ

الثقافة هوية الفرد والجماعة، ارتباطها باللغة جعل منها حقلا متنوعا للهويات الفردية والجماعية، "لأنّ الأشكال اللغوية لا تختلف عن الأشكال الثقافية، لأنّ كلا منهما يمتلك وجودا ماديا وآخر معنويا، فالأولى تظهر في شكل علامات أو كلمات مكونة من أصوات تحمل دلالات معينة، والثانية تظهر في شكل مادية لها قيمة دلالية أو استجابية من قبل الجماعات". إنّ المسجد والمدرسة والبنائات تعد مثلا من الأشكال المادية للثقافة الخاصة بمجموعة إنسانية معينة.

من خصائص الثقافة أنها متغيرة متطورة، احتاج الأمر إلى أكثر من سبعة عقود خلال القرن العشرين، للبدء في فهم الثقافات، باعتبارها كيانات متغيرة، وكان الاتجاه قبل ذلك يميل إلى اعتبار الثقافات ثابتة أساسا تتناقل الأجيال مضمونها عبر قنوات مختلفة كالتعليم، أما اليوم، فإنّ الثقافة تفهم على نحو متزايد بأنها عملية تتطور من خلالها المجتمعات على مسارات خاصة بها، وفي مفهوم الاختلاف بصورة مناسبة بالديناميكية الخاصة التي تجعل الثقافة تتغير مع الحفاظ على نفسها كما هي، وما تحتاج إليه هو وضع سياسات تضيي صبغة إيجابية على الفروقات الثقافية بحيث يمكن للمجموعات التي تتصل فيما بينها أو للأفراد الذين يحتكون فيما بينهم، العثور في ذلك الفارق على الحافز الذي يدفع إلى متابعة التطور والتغير، وليس الانطواء في هويات مغلقة.

إنّ حماية التنوع الثقافي في عصرنا ليس حفاظا عليه كما هو، لأنّ الثقافة تيار متجدد هي ليست كيان ساكنا منكمشا على ذاته كما صورتها نظرية "صدام الحضارات" لصموئيل هنتفون. الحفاظ عليها هو بمثابة حفاظ على الخصوصية الفردية الجماعية حتى وإن كانت متغيرة فعلينا أن نحافظ عليها من خلال السماح لها بالتغير والتطور. إنّ مجرد التفكير في عولمة الثقافة يوحي بأفول التنوع الثقافي الذي تضيق معه ألوان التميز الإنساني.

الترجمة أداة لغوية لبناء جسور ثقافية:

مما لاشك فيه أنّ الترجمة أصبحت نشاطا إنسانيا وجسرا معرفيا للتواصل والتفاعل بين اللغات ورحلة ثقافية تتلاقى فيها الحوارات، ما دام الرقي الحضاري لا يمكن أن ينشأ في معزل عن التواصل الثقافي مع الأمم الأخرى، فإنّ للترجمة دوراً فاعلاً في تحقيق التواصل الثقافي بين الأمم، والترجمة في الاتجاهين: من اللغة الأمّ إلى اللغات الحية الأخرى وبالعكس، فهي تسهل التعارف بين الشعوب.

فإذا ترجمنا الإنتاج العقلي والفكري لمجتمع ما إلى لغات غير لغته، فمن الطبيعي أن يتيح ذلك

فرصة للمجتمعات الأخرى لمعرفة الصورة الحقيقية لذلك المجتمع وفكره وثقافته، ما يؤدي إلى تصحيح كثير من المفاهيم والصور المغلوطة والمشوهة التي تتبناها الذات عن الآخر.

إنّ الترجمة وسيلة لغوية فاعلة ومؤثرة في تحقيق التواصل الثقافي بين الشعوب، وتعزيز الأواصر الفكرية والثقافية بينها، والكشف عن كثير من العلائق الثقافية المشتركة، وبغيباب الترجمة بين طرفين ما، فقد يدخل طرف ثالث يشكل صورة كل طرف لدى الآخر كما يريد. إنّ عملية الفهم بين الذات والغير تسييرها الترجمة كفعل لغوي يحوي التجارب والمعارف والعلوم، ومكون أصيل للهوية الثقافية. إنّ مبادئ الاحترام والتعايش والفهم والمشاركة تنميها وتطورها الترجمة. قالت المترجمة الأردنية **هدى القيسي** ان مصطلح الترجمة غير مقيد بحدود اللغات وتراكيبها، بل تجاوز ذلك ووصل إلى الثقافات والربط بين المجتمعات على اختلافها وتنوعها، وان عملية الترجمة ليست بحثاً عن مفردات أو فحوصاً للمرادفات أو دراسة للجناس وغيرها من ظواهر اللغات وعناصر علم اللغويات فقط، بل هي عملية تحمل في ثناياها عناصر لا غنى عنها من ثقافة ومجتمع وتقاليده وخصوصيات اللغة المترجم منها.

تمثل الترجمة عند **غادامير** عبوراً فكرياً من لغة إلى أخرى، ان الترجمة رافد أساسي للتنوع الثقافي والتنوير الإبداعي والحسّ اللغوي حالة أدبية خالصة وقد تتعدى الترجمة الجانب الورقي نحو تفاعل تنصهر فيه الشعوب مع بعضها البعض عبر سلوكيات أخرى ضمن فعل السياحة والتجارة مثلاً. وهي فعل ثقافي لغوي وحضاري ووسيلة تلاقح بين نصين، ويعد قاسماً مشتركاً بين الثقافات والحضارات بحيث يمكن امتحان آليات الحوار والتواصل والاستثمار المعرفي لتمكين الإنسانية من التخفيف من الانعزال والكراهية من أجل حياة متناغمة بعيدة عن التعصب.

اللغة حاملة للثقافة وأي رأي يعتبر غير ذلك هو نفي لوجود ثقافة شعب ما وهذا بنفي لغته، هذا النفي الذي ترفضه الإنسانية وتعمل عليه الأيديولوجيات والسياسات الظالمة هو رفض للآخر، ومساس بهويته، إنّ اللغة تعتبر وعاءاً ثقافياً يمكن أن تكون سبباً علاجياً لكثير من النزاعات والخلافات التي تنتشب بين مجتمعات مختلفة، وقد نقلت لنا العلوم والتكنولوجيا، فهي الأداة التي بها نواكب الحركة الفكرية والثقافية في العالم، ومن خلال الترجمة تفتحت الأمم على بعضها ولم تعد الكتب حكراً على مؤلفيها بل تناقلت بلغات مختلفة. إذا كان الحديث آنفاً عن صراعات نشبت جراء الاختلاف الديني فالיום إن لم نشارك ونتحاور ستكون الحروب التي ستحدثها اللغة حروباً أكبر. إنّ الحديث عن اللغة كقيمة ثقافية هو حديث عن هوية أفراد وجماعات تتشارك المكان والزمان معا.

هذه الهوية التي تناضل من أجل اعترافها بنفسها واعتراف الآخر بها. إنّ ن العيش في عالم واحد وامتلاك تاريخا مشتركا وثقافة ولغات متعددة هو طريقنا للوصول إلى مصير مشترك يحل فيه السلام والتعايش، والتسامح.

قائمة المصادر والمراجع :

- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الجزء 2، 1972م، ص 286.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 287.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 378.
- فريد جبرائيل النجار: قاموس التربية وعلم النفس التربوي، بيروت، 1960م، نقلا عن: جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء 1، ص 379.
- كلير كرامش: اللغة والثقافة، تر أحمد الشيمي، وزارة الثقافة والفنون والتراث للنشر، قطر، ط 1، 2010م، ص 25.
- عز الدين عثمان: اللغة والثقافة، مجلة الحوار المتمدن، العدد 24، 2008م، ص 6.
- لويس جان كالفي: حرب اللغات والسياسات اللغوية، تر حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005م، ص 153.
- عز الدين عثمان: اللغة والثقافة، ص 6.
- لويس جان كالفي: حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص 98.
- حسام الدين كريم زكي: اللغة والثقافة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، ص 11.
- كلير كرامش: اللغة والثقافة، ص 64.
- كلود ليفي شترواس: الأسطورة والمعنى، تر شاكر عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م، ص 18.
- كلير كرامش: اللغة والثقافة، ص 88.
- كلير كرامش: اللغة والثقافة، ص 92.
- منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والتعليم اليونسكو: مطوية السنة الدولية للغات، 2008م، ص 1.
- حسام الدين كريم زكي: اللغة والثقافة، ص 101.
- علي القيم: وتبقى الثقافة، رحلة في محراب المعرفة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ص 480.
- علي القيم: وتبقى الثقافة، رحلة في محراب المعرفة، ص 268.